الأفغانى والوحدة الاسلامية

للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف

— ٢ —

بين غسق القرن الغابر ، وغلس القرن الحاضر ، اشتد إمعان تركيا فى الضغط على الشرق والاستبداد بأبناء العروبة حتى فيما يمس دينهم وينال اختصاصهم ، ومن ناحية أخرى أخذ طمع الاستعمار الأوربى يفتح فاه على الشرق يريد التهامه ويطمع فى ابتلاعه ، وقد ابتدأ يتخطف أجزاءه ، ويتحيف جوانبه . مرة بالحيلة ، وأخرى بالوقيعة ، وثالثة بالسطوة والقوة ، وكان من هذه « الرزايا التى حلت بأهم مواقع الشرق أن جددت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، فتقاربوا فى النظر ، وتواصلوا فى طلب الحق ، وعمدوا إلى معالجة علل الضعف ، مؤملين أن يسترجعوا ما فقدوا من القوة ، راجين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسناً يسلكونه لوقاية الدين والشرف ».. وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوحدون كلمة الحق فى كل صقع ، لاينون فى السعى ، ولايقصرون فى الجهد[1]» ، وكان رأس هؤلاء المصلحين الداعين السيد جمال الدين الأفغانى رضوان الله عليه .

هال الأفغانى أن يرى الشرق بين أنياب الاستعمار الأوربى تنوشه من كل جانب وتدميه فى الصميم من قلبه ووجدانه ، ومع هذا فهو يغط فى سبات عميق ، وأهله فى فرقة كلها التخاذل والتنافر ، والدولة التى تحمل لواء الخلافة ليست لها صلات صحيحة — كما يقول — بأمم الشرق وأقطار العربية ، وقد كان الرجل يعجب أشد العجب إذ « يرى للمسلمين شدة فى دينهم ، وقوة فى

(١) افتتاحية العدد الأول من العروة الوثقى التى كان يصدرها جمال الدين ومحمد عبده .

وعاش عيشة المتزهدين المتصوفين ، ثم انتقل إلى الأعظمية قرب بغداد حيث ختمت بها أيامه .

وهذا التغير هو الآخر يدل على حبه للحرية ، فإنه لم يرض أن يتقيد بالزى «الأفندى» وقبل أن يلتزم قيد اللباس العربى البدوى . ولعله لم يشعر بالنقلة شعور الذى يتفرج عليها ، بل لعله لم يشعر بها مطلقاً .

***

لا أظن قلباً إنسانياً ينبض بحب الإنسانية لا تحركه هذه الكلمات البسيطة من وصية الرصافى التى كتبها قبل أن يموت :

« لا أملك شيئاً سوى فراشى الذى أنام فيه ، وثيابى التى ألبسها ، وكل ما عدا ذلك من الأثاث الحقير الذى فى مسكنى ليس لى ، بل هو مال أهله الذين يساكنونى . كل من اعتدى علىّ فى حياتى فهو فى حل منى . وإن كان هناك من اعتديت أنا عليه فهو بالخيار ، إن شاء عفا عنى ، وإلا قضى بينى وبينه الله الذى هو أحكم الحاكمين » .

فى هذه الكلمات أتخيل الرصافى كالأسد الجريح .. الأسد الذى هدت من حياته تصورات الموت وسخف الحياة الماضية . إن هذه النغمة ليست نغمة المستكين الضعيف ، ولكنها نغمة القوى الذى وضح لعينه سخف القوة والأقوياء .

لقد كانت فى حياة الرصافى عدة دروس جديرة بالاعتبار . ومما لا شك فيه أن ستقوم هنا وهناك حفلات التأبين ، وسنسمع أصوات أولئك الذين يمجدونه ويلهجون بحمده وحمد شعره وآثاره . ولكن لن يكون لكل هذا من جواب من الرصافى نفسه ، لو أنه يطلع عليهم من وراء الحجب ، غير ضحكة الاستهزاء والسخرية . فما كان أكثر تعريضه بهذه الأساليب التكريمية وقلة جدواها

هل سنتعظ من درس الرصافى هذا ؟

أشك فى ذلك .

(بغداد) عبد الوهاب الأمين

إيمانهم ويقينهم ، يباهون بها من عداهم ، حتى ليشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء » ومع هـذا يراهم « فى شقاق مقيم ، وتنافر أليم ، وغفلة عما ينتظرهم ، ويلم ببعضهم » .

أقول هال السيد الأفغانى ما رأى وما كان يتوقع من مقدمات الحوادث ، وأفزعه ذلك الشتات فى الجامعة الإسلامية ، وتحقق له أن الفرقة علة الشرق المتوطنة ، وداؤه المتمكن ، فنهض يصيح « بأرباب الغيرة من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحجة والحق ألا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ، ويجمع شتيتهم ، وأن يتعاونوا على صون الوحدة عن كل ما يثلمها ، فيكونوا بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة ، وطلبوا سعادة ، والرمق باق ، والآمال مقبلة » ، ولقد كان ذلك المصلح العظيم يرى أن قيام هذه الوحدة للمسلمين « مما تقضى به الضرورة ، وتحكم به العادة ، حتى يقيموا بذلك سداً يحول عنهم تدفق السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب ، ومن ثم ظل طول حياته ينهض بهذه الدعوة. وينادى بضرورتها فى كل مناسبة سانحة ، وفى كل مكان تنزل به قدمه ، ثم أراد أن ينظم سبيل الدعوة ، وأن يقوى من صوتها وأغراضها ، فأنشأ جمعية « أم القرى » وهوفى مكة لتدعو إلى الجامعة الإسلامية تحت لواء خليفة واحد يسيطر على العالم الإسلامى أجمع ، ثم ألف جماعة « العروة الوثقى » وهو فى باريس من مسلمى الهند ومصر وشمال أفريقيا وسوريا ، وأصدر بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده مجلة « العروة الوثقى » لساناً لحالها وتعبيراً عن أغراضها ، وكان هدفها وحدة المسلمين وإيقاظهم من سباتهم ، وتنبيههم إلى المخاطر التى كانت تهددهم ، وإرشادهم إلى سبل مواجهتها والتغلب عليها[1].

كانت دعوة جمال الدين تتلخص فى أن الوحدة بين المسلمين ضرورة تقضى بها الطبيعة والعادة ، ويؤيدها العقل والنقل ، وتقرها شواهد التاريخ للجماعات البشرية ، وعوامل الاجتماع والألفة بين الأمم والشعوب ، وكان يضرب لذلك الأمثال والسوابق فى تاريخ الوحدة الإسلامية فى الصدر الأول ، والوحدة الجرمانية فى العصر الحديث ، أما المبررات والدعائم التى تقوم عليها هذه الوحدة ، فقد أشار إليها إشارة عابرة فى إحدى مقالاته إذ يقول : « إن من أدرته إلى يشاور دولاً إسلامية متصلة الأراضى متحدة العقيدة لا ينقص عددهم عن خمسين مليوناً[1] ، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة ، فلو اتفقوا فليس ذلك ببدع بينهم.. » ، ومعنى هذا أنه يرى أن الدعائم لتحقيق الوحدة ترجع ، أولا : إلى اتصال الأراضى وتجانس الوضع الجغرافى بين الأقطار الإسلامية ، وثانياً: إلى اتحاد العقيدة التى تربط القلوب وتؤلف النفوس وتوحد بين الأحساس والاتجاه ، وثالثاً : كثرة العدد ، وهذا مما يجعل الوحدة قوة يحسب حسابها ويخشى بأسها ، ورابعاً : ما يتجلى فيهم من صفات الشجاعة الموروثة ومآثر الرجولة الكامنة ، وهذا مايقوى الأمل فى قدرة الوحدة على مواجهة الخطوب والتغلب على الصعاب التى تحيط بها ، وحطم الأنياب المسنونة لانتهاشها .

ثم يشرح الأفغانى غاية ما يرجو فى قيام الوحدة ، ومدى ما يطمع فيه من الوضع الذى تتحقق به فيقول : « لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما كان عسيراً ،ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى جهده لحفظ الآخر ما استطاع ، ويعتقد أن حياته بحياته ، وأن بقاءه ببقائه ، على أن تكون أول صيحة تبعث على الوحدة وتوقظ من الرقدة ، صادرة من أعلاهم مرتبة ، وأقواهم شوكة .. » ، وهنا يبدو الرجل فى الواقع حكيما فطناً ، وسياسياً عالماً ببواطن النفوس ، فلم يركب الشطط فى الطلب ، ولم يسرف على نفسه وعلى الناس فى الخيال ، فيرجو وحدة يكون مالك الأمر فيها شخصاً واحداً ، لأنه كان يعرف أن الأنانية المتسلطة على نفوس أهل السلطان لا تؤهلهم إلى إنكار ذاتهم ونسيان أنفسهم ، ولا تسمح لهم بفناء أشخاصهم فى شخص واحد من أجل مصلحة المسلمين ووحدتهم العامة ، ولهذا

(١) راجع ما كتبه الشيخ رشيد فى الجزء الأول من تاريخ الامام .

(١) كان هذا العدد فى تلك الأيام

وقف فى رجائه عندما يسمح به الواقع ، وتجود به الطبائع ، ويكفى فى تحقيق الغرض ، ولعل الأفغانى لم يقتصد فى وجه من وجوه الدعوة كما اقتصد فى هذا الموضع الدقيق الذى كان يتعاظمه الناظرون فى مسألة الوحدة ، ويرونه عقدة المشكلة وعقبة الطريق ، فتغلب عليها الرجل بالتغاضى عن مظاهر السلطان الشكلية ، وإن كان أحكم الرباط المنوى فى القصد والغاية ، والشعور والاتجاه ، حتى يكون الجميع يداً واحدة ، ووجهة متفقة ، وقوة دفاعية لصد التيار الجارف ، وهذا غاية ما تطلع إليه الآخذون بخطة الأفغانى من بعده ، وهو الوضع الذى قام عليه « بروتوكول » الجامعة العربية وميثاقها فى هذه الأيام .

وتحدث الأفغانى عن الأداة التى تهيئ للوحدة ، وتجمع حولها العواطف والميول ، وتغرسها عقيدة فى النفوس وفى القلوب ، وحاول أن يجد هذه الأداة فى الصحافة التى كانت قائمة فى أيامه ، ولكنه لم يكن على ثقة بها ، يراها قليلة الغناء والفائدة ، وضرب المثل بما كان من سوء تأثيرها ودعوتها إلى التفرق والانقسام وتبديد بقايا الالتئام ، وجعلها النوافذ والخصاص فى بنيان الأمة أبواباً ليدخل منها الأجنبى ، وكان هذا رأيه فى ناشئة المدارس المدنية فى مصر وتركيا لأنهم أضعفوا الأمة بدلا من أن تنال بهم القوة والمنعة ، وكل بضاعتهم التفيهق بألفاظ الحرية والوطنية والمدنية ، وهم لا يدركون مغزاها ومرماها ، ولا يقدرون تكاليفها ، وغاية ما لهم هو الإسراف فى تقليد الأجانب والانسلاخ من قوميتهم ، فكان أن تجاوز الرجل الأمل فى هذين العاملين ، وانتهى فى اختيار الأداة إلى العلماء العاملين ، وجعلهم مناط التكليف للقيام بهذه المهمة وطلب منهم أن يكون لهم اليد الطولى فى هذا العمل الشريف ، وقد وضع لهم فى ذلك برنامجاً منظماً محكماً إذ يقول : « ومن الواجب على العلماء قياماً بحق الوراثة التى شرفوا بها على لسان الشارع ، أن ينهضوا إلى إحياء الرابطة الدينية ، ويتداركوا الاختلاف الذى وقع فى الملك بتمكين الاتفاق الذى يدعو إليه الدين ، ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق فى مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطاً لروح حياة الوحدة ، ويصير كل واحد منها حلقة فى سلسلة واحدة ، إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ فى جميع أنحاء الأرض بعضهم ببعض ، ويجعلون لهم مراكز فى أقطار مختلفة يرجعون إليها فى شؤون وحدتهم ، ويأخذون بأيدى العامة إلى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ، ويجمعون أطراف الوشائج إلى معقل واحد يكون مركزه فى الأقطار المقدسة وأشرفها فى معهد بيت الله الحرام حتى يتمكنوا بذلك من شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان ، والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل ، وتطرق الأجانب للتداخل فيها بما يحط من شأنها ، ويكون ذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الأفهام وصيانة الدين من البدع .. »

هذه هى الأداة التى وقع عليها اختيار الأفغانى ، وهذا هو البرنامج الذى وضعه لدعاة الوحدة وألسنتها ، والظاهر أن الرجل فى هذا الاختيار وهذا الإيثار قد تمثل أمامه ما كان لهذه الأداة من القوة والسلطة فى الصدر الأول ، وما كان للعلماء والأئمة والوعاظ يومذاك من صلة محكمة بشئون الدين والدنيا ، وأمور السياسة والملك ، وأحوال الناس والعباد ، ثم ما كان فى نفوسهم وفى قلوبهم من إباء فى الحق ، وغيرة على الصدق ، وعزة ترتفع بهم عن منازل الخضوع والخنوع ، ولكن أين هم أولئك العلماء وأين هم أولئك الوعاظ والخطباء والأئمة حتى يعلق بهم السيد الأفغانى كل الأمل فى رأب الصدع ، وجمع الشمل ، وبناء المجد . لقد وقع الرجل بحسن ظنه بعيداً عن الحقيقة ، واهماً فى الأصل ، ولو أنه تكشف بواطن الأمور فى هذه المسألة لتبين أنه اختار للأمر أداة بطل عملها ، وتفككت أوصالها ، وفقدت قوتها ، حتى أصبحت فى نفسها وفى وضعها جزءاً من العلة ، وأصلا من أصول الداء ، وعجيب أن يكون هذا أمل الأفغانى فى العلماء والوعاظ والأئمة ، وهو الذى اصطلى نارهم ، وخرق بسيرهم ، وقضى حياته يشكو المناهضة منهم ، والمضايقة من جمودهم وجحودهم للدين والحق تملقاً لأهل السلطان والسياسة ، وهكذا عاش تلميذه الأستاذ الإمام من بعده . ولو أن العمر امتد بالأفغانى إلى تلك الأيام ، ورأى ما كان من تطور الحوادث والأحداث ، وعلم الزعماء والرجال الذين جاهدوا لمجد الشرق العربى ، ومدافعة الاستعمار الأجنبى ، وليس فيهم رأس من أولئك العلماء والأئمة والخطباء ، إذن لتنكر لرأيه ، ولبارك رجالا أساء الظن بهم ، فكان القادة منهم ، والطلائع من بين صفوفهم .

وأخيراً ينتهى الأفغانى فى الرأى إلى أن يكون لهذه الوحدة الدينية قبلة ، هى قبلة الدين ، ووجهة المسلمين فى مشارق الأرض